ملاحظة: "من هذا البحث ثلاث نسخ، واحدة بالتوثيق داخل المتن ، وهي المعتمدة، والثانية التوثيق في الحاشية وعليها ترويسة مجلة النجاح للأبحاث، والثالثة . وهي هذه النسخة . التوثيق في الحاشية وليس عليها ترويسة مجلة النجاح للأبحاث"

الأحكام المبنيّة على كثرة الاستعمال عند الفرّاء
في ضوء كتابه (معاني القرآن)

الدكتور حمدي الجبالي Hamdi Al - Jabali

جامعة النجاح الوطنية
كلية الآداب " قسم اللغة العربية "

الملخص :

غايةُ هذا البحث أنْ يقفَ على مفهوم كثرةِ الاستعمالِ عندَ الفرّاءِ ، من خلالِ جمعِ ما أشارَ إليه من ظواهرَ لغويّةٍ أخضعَها لسلطانِ الاستعمالِ وكثرتِه ، ووقفَ عندَها مُفسّرًا مُحلّلاً عمادُه ذلكَ السلطانُ ؛ لتأييدِ مذهبِه ، وبناءِ قاعدتِه . وبيّنَ البحثُ أنَّ الفرّاءَ كانَ سبّاقًا إلى الاعترافِ بخضوعِ اللغةِ لأثرِ الاستعمالِ ودورِه وتدخُّلِه في توجيهِ ما جرى على الألسُنِ ، وكثرَ تردُّدُهُ وتَكرارُهُ في الكلامِ ؛ ذلكَ لأنَّ ما كثُرَ استعمالُه ، ووضَحَ معناهُ يخِفُّ على الألسُنِ ، ويجوزُ فيهِ ما لا يجوزُ في غيرِهِ.

The Principles Based on Overusage According to AL-Farra`
in the Light of his book (Ma?ani AL - Kor?aan

The intent of this research was to examine the concept of overusage according to AL-Farra` through picking up the linguistic phenomena that he subjucated to the domination of usage and / or overusage and surveyed them interpretably so that he might support his doctrine and construct his principle .The research also brought into view that AL-Farra` was a precursor in admitting that language is subjucated to the effect and interference of usage on directing what was on everybody`s lips or what was frequently used or repeated for the more a thing is overused or is plain in meaning , the mild it will be in speaking and it will become much more permissible than any others.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأحكام المبنيّة على كثرة الاستعمال عند الفرّاء
في ضوء كتابه (معاني القرآن)

مدخل :

إنَّ مصطلحَ الكثرةِ واحدٌ من المصطلحاتِ التي لها حضُورٌ دائمٌ وواسعٌ في (معاني القرآنِ) للفرّاءِ ، على العكسِ من مصطلحِ القلّةِ[1] ، وما في معناهُ[2] . فقد أفرطَ الفرّاءُ في استخدامِ مصطلحِ الكثرةِ في كتابهِ ، وهو لديهِ يسيرُ في مَسلَكينِ ، بينَهما اختلافٌ . أمّا الأوّلُ فيدورُ في فَلَكِ الكَمِّ ، ووصفِ الظاهرةِ بالكثرةِ في سياقِها ، دونَ أنْ يقرنَه بالاستعمالِ[3] ، وأكثرُ ما جاءَ لديهِ من هذا البابِ. وأمّا الثاني . وهو موضوعُ هذا البحثِ . فيَقترِنُ بالاستعمالِ ، أو ما يدلّ عليه ، ويكونُ فيهِ الفرّاءُ معتلاً لبناءِ قاعدةٍ ، مُحتجًّا لها ، متّخذًا منه عِمادَ هذا الاحتجاجِ . ومواضِعه تكادُ تكونُ محدودةً مقارنةً بالكثرةِ في مسلكِها الأوّلِ .

---

[1] ينظر : **1**/399 ، 417 ، 470 ، **و 2**/10 ، 86 ، 179 ، 223 ، 224 ، 259 ، 314 ، 329 ، **و 3**/65 .

[2] كقوله : وليس بالكثير (102/1 ، 417) ، ولو كثر لجاز (286/1) .

[3] كأن يقول : " وهو كثير (81/1)، وذلك كثير في العربية (60/1) ، وكلاهما صواب كثير في الكلام (80/1) ، فهذه الحروف كثيرة (323/1) ، في كثير من أشباهه (339/1) ، وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم (14/1) ، وهو كثير في الشعر والكلام (87/1) ، وهو أكثر كلام العرب (333/1) ، وهو في القرآن والكلام كثير (459/1)، وهو في القرآن كثير (113/1) ، ومثله في القرآن كثير (109/1) ، ومنه في كتاب الله شيء كثير (229/1) ، في كثير من القرآن (104/1) ، وكذلكَ كلّ ما في القرآن وهو كثير (81/1) ، وهي أكثر قراءة القراء (411/1) ، لأن فتح الراء كثير (149/1) ، فأمّا الضمّ فكثير (174/1) ، والنصب أكثر (309/1) ، فهذا في بئس ونعم مطرد كثير (268/1) ، فلما جرى أكثره (307/1) " ، ونحو ذلك . وينظر أيضا : **1**/2 ، 19 ، 34 ، 67 ، 79 ، 82 ، 107 ، 118 ، 173 ، 201 ، 205 ، 208 ، 215 ، 237 ، 257، 281 ، 304 ، 326 ، 328 ، 333 ، 341 ، 373 ، 393 ، 394 ، 398 ، 401 ، 414 ، 441 ، 457 ، 462 ، 471 ، **و 2**/ 6 ، 38 ، 69 ، 84 ، 95 ، 96 ، 102 ، 103 ، 114 ، 124 ، 128 ، 134 ، 135، 142، 163، 168 179 ، 181 ، 187 ، 190 ، 2023 ، 204 ، 222، 224 ، 232 ، 246 ، 252 ، 255 ، 269 ، 274 ، 294 ، 302 314 ، 333 ، 344 ، 352 ، 353 ، 358 ، 362 ، 366 ، 367 ، 375 ، 377 ، 379 ، 389، 392 ، 402 ، 413 416 ، 418 ، 422 ، **و 3**/15 ، 22 ، 42 ، 48 ، 65 ، 78 ، 89 ، 95 ، 109 ، 112 ، 167 ، 171 ، 179 ، 189 206 ، 207 ، 210 ، 217 ، 225 ، 226 ، 229 ، 233 ، 240 ، 245 ، 253 ، 256 ، 258 ،277 ، 282 . والكثرة بهذا المفهوم بحاجة إلى فضل بيان .

ويسعى هذا البحثُ للوقوفِ على الظواهرِ اللغويّةِ التي كثرَ استعمالُها ، والتي أشارَ إليها الفرّاءُ، ووقفَ عندَها مُحلّلاً مُفسّرًا ، معتمدًا على هذه الكثرةِ ، متّخذًا منها الحُجّةَ لتأييدِ مذهبِهِ ، وبناءِ قاعدتِه .

وهذه الظواهرُ تتوزّعُها مسائلُ لغويّةٌ متنوّعةٌ ، وأبوابٌ نحويّةٌ متفرّقةٌ ، نسوقُ ما تشابهتْ أحكامُه على التتابعِ والتوالي مستعينين بعناوين رئيسةٍ ، وأخرى فرعيةٍ .

أوّلاً . الحذف :

ألحَّ الفرّاءُ في غيرِ موطنٍ في كتابه على أنَّ اللفظَ إذا كثُرَ على ألسُنِ العربِ ، وكثُرَ في استعمالِهم ، ووضُحَ معناهُ ، فإنّ العربَ يحذفُونَ حرفًا أو أكثرَ من أحرفِه ، يُؤثرُونَ تخفيفَه ، وأنّهم يستخفّونَ ذلكَ .

1 . الهمزةُ الأصليةُ : وقفَ الفرّاءُ على ظواهرَ الأصلُ فيها أنْ تُهمزَ ، ولكنَّ العربَ تركتْ همزَها لكثرةِ استعمالِها ، ودَوْرِها في الكلامِ .

من ذلكَ تركُ همزِ الأمرِ من **سألَ** . قالَ إذ وقفَ على قولِه تعالى : { سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ }[4]: " لا تُهمزُ في شيءٍ من القرآنِ الكريمِ ؛ لأنّها لو هُمزتْ كانتِ (اسْأَلْ) بألفٍ . وإنما تُركَ همزُها في الأمرِ خاصّةً ؛ لأنّها كثيرةُ الدورِ في الكلامِ ؛ فلذلكَ تُركَ همزُهُ كما قالوا: **كُلْ** ، **وخُذْ** ، فلم يهمِزُوا في الأمرِ ، وهمزوا في النهيِ وما سِواهُ . وقد تهمزُه العربُ . فأمّا في القرآنِ فقد جاءَ بتركِ الهمزِ "[5] .

ومن ذلكَ تركُ همزِ **سبا** لكثرةِ جريِه على ألسنتِهم . قالَ : " والعربُ تقولُ : تفرّقُوا أيادِي سَبَا وأيادِي سَبأً ، قالَ الشّاعرُ[6] :

عينًا ترَى الناسَ إليها نَسيبا مِن صادرٍ وَوارِدٍ أيادِي سَبَا /الرجز

يتركُونَ همزَها ؛ لكثرةِ ما جرَى على ألسنتِهم، ويُجرُونَ سَبا ، ولا يُجرُونَ ، مَن لم يُجرِ ذهبَ إلى البلدةِ ، ومَنْ أجرى جعلَ سَبَا رجلاً أو جبلاً ، ويهمزُ . وهو في القرآنِ كثيرٌ بالهمزِ ، لا أعلمُ أحدًا تركَ همزَه "[7] .

وقريبٌ من هذا أنَّ الفرّاءَ ذكرَ أنَّ معنى قولِه تعالى: { لكنّا هوَ اللهُ ربِّي }[8] هو " لكنْ أنَا هوَ اللهُ ربّي، تُركَ همزُ الألفِ من **أنَا**، وكثرَ بها الكلامُ، فأدغمتِ النونُ من (أنا) معَ النونِ من لكنْ "[9] .

ومّما يتصلُ بحذفِ الهمزةِ أنَّ أصلَ **أشياءَ** عندَ الفرّاءِ (أشيئاءُ) ، فحُذفُ من وسطِها الهمزةُ؛ لكثرتِها في الكلامِ[10] .

وقد ينعكسُ الأمرُ فتهمزُ العربُ غيرَ المهموزِ لكثرتِه في كلامِهم . قالَ مُعقّبًا على قولِه تعالى: { وجعلْنا لَكُمْ فيهَا **مَعَايِشَ** }[11] : " لا تُهمزُ ؛ لأنّها . يعني الواحدةَ . مَفْعِلةٌ ، الياءُ من الفعلِ ، فلذلكَ لم تُهمزْ ، إنّما يُهمزُ من هذا ما كانتِ الياءُ فيهِ زائدةً ، مثل مدينةٍ ومدائنَ ، وقبيلةٍ وقبائلَ . لمّا كانتِ الياءُ لا يعرفُ لها أصلٌ ، ثمَّ قارفتْها ألفٌ مجهولةٌ أيضًا هُمزتْ ، ومثلُ معايشَ من الواوِ ممّا لا يهمزُ لو جُمعتَ ،

---

[4] البقرة الآية 211 .

[5] معاني القرآن 124/1 .

[6] هو دكين الراجز كما في لسان العرب (نسب) 756/1 .

[7] معاني القرآن 358/2 . وينظر : المقصور والممدود ص 50 .

[8] الكهف الآية 38 .

[9] معاني القرآن 144/2 .

[10] معاني القرآن 321/1 .

[11] الأعراف الآية 10 .

معونةٌ قلتَ : معاونُ ، أو منارةٌ قلتَ : مناورُ . وذلكَ أنَّ الواوَ ترجعُ إلى أصلِها ؛ لسكونِ الألفِ قبلَها . وربّما همزتِ العربُ هذا وشبهَهُ ، يتوهّمونَ أنّها فعيلةٌ ، لشبَهِها بوزنِها في اللفظِ وعدّةِ الحروفِ ؛ كما جمعُوا مسيلَ الماءِ أمسلة ، شبّهَ بفعيلٍ ، وهو مفعِل . وقد همزتِ العربُ المصائبَ ، وواحدتُها مُصيبةٌ ؛ شُبّهتْ بفعيلةٍ لكثرتِها في الكلامِ "[12] .

2 . بسم الله : ذكرَ الفرّاءُ أنَّ الإجماعَ منعقدٌ على حذفِ الألفِ من (اسم) من قولِه تعالى : {بِسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ } . ولكنَّه اشترطَ لهذا الحذفِ أنْ يُضافَ (اسم) إلى لفظِ الجلالةِ وحدَه ، وأنْ يكونَ مخفوضًا بالباءِ دونَ غيرِه من حروفِ الجرِّ ؛ وذلكَ لكثرةِ لزومِ (اسم) لفظَ الجلالةِ ، وكثرةِ استعمالِ الباءِ معَه . قالَ في فواتحِ كتابِه : " فأوّلُ ذلكَ اجتماعُ القُرّاءِ وكُتّابِ المصاحفِ على حذفِ الألفِ من { بِسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ } ، وفي فواتحِ الكتبِ ، وإثباتُهم الألفَ في قولِهِ : {فسبّحْ باسمِ ربِّكَ العظيمِ }[13] ؛ وإنّما حذفُوها من { بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ } أولَ السّوَرِ والكُتبِ؛ لأنّها وقعتْ في موضعٍ معروفٍ لا يجهلُ القارئُ معناهُ ، ولا يحتاجُ إلى قراءتِه ، فاستخفَّ طرحَها ؛ لأنَّ من شأنِ العربِ الإيجازَ ، وتقليلَ الكثيرِ إذا عُرِفَ معناهُ ، وأُثبتتْ في قولِه : { فسبّحْ باسمِ ربِّكَ العظيمِ } لأنّها لا تلزمُ هذا الاسمَ ، ولا تكثُرُ معَهُ ككثرتِها معَ اللهِ تباركَ وتعالى . ألا ترى أنّكَ تقولُ: بسمِ اللهِ عندَ ابتداءِ كلِّ فعلٍ تأخذُ فيهِ : من مأكلٍ أو مشربٍ أو ذبيحةٍ . فخفَّ عليهم الحذفُ لمعرفتِهم بهِ. وقد رأيتُ بعضَ الكتّابِ تدعُوه معرفتُه بهذا الموضعِ إلى أنْ يحذفَ الألفَ والسينَ من (اسم) ، لمعرفتِه بذلكَ ، ولعلمِه بأنَّ القارئَ لا يحتاجَ إلى علمِ ذلكَ . فلا تحذفنَّ ألفَ (اسم) إذا أضفتَه إلى غيرِ اللهِ تباركَ وتعالَى ، ولا تحذفنَّها معَ غيرِ الباءِ منَ الصّفاتِ ، وإنْ كانتْ تلكَ الصّفةُ حرفًا واحدًا ، مثلَ اللامِ والكافِ . فتقولُ : لاسمِ اللهِ حلاوةٌ في القلوبِ ، وليسَ اسمٌ كاسمِ اللهِ ؛ فثبتتِ الألفُ في اللامِ وفي الكافِ ؛ لأنّهما لم يستعملا كما استعملتِ الباءُ في اسمِ اللهِ "[14] .

3 . أيْشٍ : وذكرَ أيضًا قولَهم : أَيْشٍ عندَكَ ، وجعلَه ممّا حُذفَ منه أكثرُ ممّا حُذفَ من {بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ } ؛ لكثرتِه في كلامِ العربِ . قالَ محتجًّا لمذهبِه السابقِ: "وممّا كثرُ في كلامِ العربِ فحذفُوا منهُ أكثرَ من ذا قولُهم : أَيْشٍ عندَكَ ؛ فحذفوا إعرابَ (أيّ) وإحدى ياءَيه، وحُذفتِ الهمزةُ من (شيءٍ) ، وكُسرتِ الشينُ ، وكانتْ مفتوحةً ؛ في كثيرٍ من الكلامِ لا أُحصيه"[15] .

---

[12] معاني القرآن 373/1 . 374 .

[13] الواقعة الآية 74 ، والحاقة الآية 52 .

[14] معاني القرآن 1/1 . 2 . وذكر الفراء قولاً آخر في حذف الألف من (بسم) وأبطله ، هو أنّ الباء لا تنفصل ولا يُسكت عليها . وأورد أبو جعفر النحاس في (إعراب القرآن 167/1) القولين اللذين أوردها الفراء وأضاف إليهما قولين آخرين أحدهما أنّ الألف حُذفت لأنّها ليست من اللفظ ، وثانيهما أنّ الأصل بسمّ وسُمّ ، ثم جئت بالباء فصار بِسم ثمّ حذفت الكسرة فصار بِسْم ، فعلى هذا القول لم يكن فيه ألف .

[15] معاني القرآن 2/1 .

ولعلّه من المفيد أنْ نَقِفَ على رأي أبي عليٍّ الفارسيِّ في (أَيْشٍ) . فقد نقلَ عن الفرّاءِ أنّهم يقولُونَ : أَيْشٍ لكَ ، ولكنّه خالفَه في التفسيرِ ، ورأى أنَّ الأصلَ أيُّ شيءٍ ، " فخفِّفَ الهمزةَ ، وأُلقي الحركةُ على الياءِ ، فتحرّكت الياءُ بالكسرةِ ، فكُرهت الكسرةُ فيها ، فأُسكنتْ ، فلحقَها التنوينُ ، فحُذفتْ لالتقاءِ الساكنينِ ، كما أنَّه لمّا خُفِّفَ هو يَرْمِ إخْوانَه ، فحُذفتِ الهمزةُ ، وطُرِحَ حركتُها على الياءِ ، كُرِهَ تحريكُها بالكسرةِ ، فأسكنَها وحذَفَها لالتقائِها معَ الخاءِ من الإخْوانِ ، فالتنوينُ في (أيشٍ) مثلُ الخاءِ في إخْوانه "[16].

4 . تنوين العلم المتبوع بـ (ابن) : لقد فصلَّ الفرّاءُ المواضعَ التي ينوَّنُ فيها العلمُ المتبوعُ بـ (ابن) ، والمواضعَ التي يحذفُ فيها تنوينُه . فذكرَ أنَّ الوجهَ أنْ يُنوّنَ إذا كانَ الكلامُ قبلَ (ابن) مُحتاجًا إليه ، وأنْ يُحذفَ تنوينُه إذا كانَ قد اكتفَى دونَ (ابن) ، وذلكَ إذا ظهرَ اسمُ أبي الرجلِ أو كنيتُه ، وذكرَ أنَّ إثباتَ التنوينِ واجبٌ إذا أَضفْتَ (ابن) ، سواءٌ أكانَ الكلامُ قبلَه تامّا مُكتفيًا أم ناقصًا . ووجهُ حذفِ التنوينِ في الموضعِ الواجبِ حذفُه فيه كثرتُه في الكلامِ ، وكونُه موضعًا مُستعملاً ، وذلكَ في النّسبِ ، ولكنّه عادَ وأجازَ حذفَ نونِ التنوينِ ، وإنْ كانَ الكلامُ قبلَها ناقصًا ؛ لسكونِ الباءِ من (ابن) ؛ لثقلِها لكونِها ساكنةً لقيتْ ساكنًا ، فحُذفَتْ لثقلِ حركتِها ، كما عادَ وأجازَ إثباتَ النونِ في الكلامِ التامِّ معَ ذكرِ الأبِ .

قالَ مُفسّرًا قولَه تعالى: { وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ }[17] : " قرأها الثّقاتُ بالتنوينِ وبطرحِ التنوينِ . والوجهُ أنْ يُنوَّنَ ؛ لأنَّ الكلامَ ناقصٌ (وابن) في موضعِ خبرٍ لعُزيرٍ . فوجهُ العملِ في ذلكَ أنْ تُنوِّنَ ما رأيتَ الكلامَ مُحتاجًا إلى (ابن) . فإذا اكتفَى دونَ (بن) ، فوجهُ الكلامِ ألاّ يُنوَّنَ ، وذلكَ معَ ظُهورِ اسمِ أبي الرّجلِ ، أو كُنيته . فإذا جاوزتَ ذلكَ فأضفْتَ (ابن) إلى مكنيٍّ عنهُ ؛ مثل : ابنكَ ، وابنه ، أو قلتَ : ابنُ الرّجلِ ، أو ابنُ الصالحِ ، أدخلْتَ النونَ في التّامِ منهُ والناقصِ . وذلكَ أنَّ حذفَ النونِ إنّما كانَ في الموضعِ الذي يُجرى في الكلامِ كثيرًا ، فيُستخفُّ طرحُها في الموضعِ الذي يُستعملُ . وقد ترى الرّجلَ يُذكرُ بالنسبِ إلى أبيه كثيرًا ، فيُقالُ : من فلانِ بنِ فلانٍ إلى فلانِ بنِ فلانٍ ، فلا يُجرَى كثيرًا بغيرِ ذلكَ . وربّما حذفْتَ النونَ ، وإنْ لم يتمَّ الكلامُ ؛ لسكونِ الباءِ من (ابن) ، ويُستثقلُ النونُ إذْ كانتْ ساكنةً لقيتْ ساكنًا ، فحذفت استثقالاً لتحريكِها . قالَ: من ذلكَ قراءةُ القرّاءِ (عُزَيرُ ابنُ اللهِ) .... وقد سمعتُ كثيرًا من الفُصحاءِ يقرءونَ : { قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ اللهُ الصّمَدُ }[18] ، فيحذفُونَ النونَ من (أحد) ... وربّما أدخلُوا النون في التّمامِ معَ ذكرِ الأبِ؛ أنشدني بعضُهم :

---

[16] الأشباه والنظائر 267/1 .

[17] براءة الآية 30 .

[18] الإخلاص الآية 1.

جَارِيةٌ من قيسٍ ابنِ ثَعلبه كأنّها حِليَةُ سيفٍ مُذهَبه"[19] /الرجز

5 . سوف : وممّا تُركَ بعضُ أحرفِه تخفيفًا ؛ لكثرتِه في الكلامِ ، ولكونِ موضعِه معروفًا للقارئ غيرَ مجهولٍ ؛ (سوفَ) . فقد تركت العربُ منها الفاءَ والواوَ . وقد حشرَ الفرّاءُ (سوفَ) مع **أيشٍ ، ولا أبا لكَ، ولا أبا لشانئكَ ، وكيفَ** ، وهي جميعًا ألفاظٌ كثرُ استعمالُها فتركَت العربُ منها بعضَ أحرفِها . قالَ معقّبًا على قولِه تعالى : { ولَسوفَ يُعطيكَ ربُّكَ فترضَى }[20] . وهي في قراءةِ عبدِ اللهِ { وَلَسَيُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى } والمعنى واحدٌ ، إلاّ أنَّ (سوفَ) كثُرتْ في الكلامِ ، وعُرفَ موضعُها، فتُركَ منها الفاءُ والواوُ ، والحرفُ إذا كثُرَ فربّما فُعِلَ به ذلكَ ، كما قيلَ أَيشٍ تقولُ ، وكما قيلَ : لابَاكَ ، وقُمْ لا بشانئكَ ، يُريدونَ : لا أبا لك ، ولا أبا لشانئكَ ، وقد سمعتُ بيتًا حُذفت الفاءُ فيه من كيفَ ، قالَ الشاعرُ[21] :

من طَالبينَ لِبُعْرَانٍ لَنا رَفَضَتْ كَيلا يَحُسّونَ من بُعْرَانِنا أَثَرا /البسيط

أرادَ : كيفَ لا يَحُسُّون ؟ وهذا لذلك "[22] .

6 .كم : مذهبُ الفرّاءِ أنَّ أصلَ (كم) هو (ما) الاستفهاميّةُ ، زيدتْ في أوّلِها الكافُ، ثمّ كثُر بها الكلامُ حتّى حُذفتِ الألفُ من آخرِها . قالَ : " ونَرى أنَّ قولَ العربِ : كم مالُكَ ؟ أنّها (ما) وصلتَ من أوّلِها بكافٍ ، ثمَّ إنَّ الكلامَ كثُرَ بـ (كم) حتّى حُذفتِ الألفُ من آخرِها ، فسكنتْ ميمُها ؛ كما قالُوا : لِمْ قلتَ ذاك ؟ ومعناهُ : لِمَ قلتَ ذاكَ ، ولِمَا قلتَ ذاكَ ؟ قالَ الشّاعرُ :

يا أبا الأسودِ لِمْ أسلمتَني لِهُمُومٍ طَارقاتٍ وذكرِ /الرمل

وقالَ بعضُ العربِ في كلامِه ، وقيلَ لهُ : منذُ كمْ قعدَ فلانٌ ؟ فقالَ : كمُذْ أخذتَ في حديثِكَ ، فرَدُّهُ الكافَ في (مُذْ) يدلُّ على أنَّ الكافَ في (كم) زائدةٌ . وإنّهم ليقولُونَ : كيفَ أصبحتَ ؟ فيقولُ: كالخيرِ ، وكخيرٍ . وقيلَ لبعضِهم : كيفَ تصنعونَ الأَقطَ ؟ فقالَ : كهَيِّنٍ "[23] .

وعرضَ أبو جعفرٍ النحّاسُ لأصلِ كم ، ونقلَ عن الكسائيِّ أنَّ أصلَها كما ، وأنَّ الألفَ حُذفتْ من (ما) كما تحذفُ معَ حروفِ الجرِّ ، وأنّه قيلَ للكسائيِّ : " فلمَ أَسكَنْتَ الميمَ ؟ قالَ : لكثرةِ الاستعمالِ "[24] . وقد أيدَّ المستشرقُ برجشتراسرُ أنَّ أصلَ كم هو كما[25] .

---

[19] معاني القرآن 1/ 431 . 432 . وذكر أبو حيان أنهم اشترطوا أيضا لحذف تنوين العلم المنوع بـ (ابن) أن يكونَ (ابن) واقعا بين علمين مذكرين ، وأنّه لو كان الثاني مؤنثا نحو : زيدٌ بن علية لثبتت النون ، وأما في عمرِو بنِ هندٍ فحذف لكثرة الاستعمال . ينظر ارتشاف الضرب 124/3 . والرجز للأغلب العجلي في ديونه ص 148 .

[20] الضحى الآية 5 .

[21] الشعر لابن أحمر في ديوانه ص 71 ، وروايته : أو راعيانِ لِبُعرانٍ شَرَدْنَ لَنا كي لا يُحِسّانِ من بُعْرانِنا أثرا

[22] معاني القرآن 274/3 . وينظر : شرح المفصل 110/4 ، وخزانة الأدب 195/3 .

[23] معاني القرآن 466/1 .

[24] إعراب القرآن 129/4 . وينظر : الإنصاف في مسائل الخلاف مسألة رقم 40 .

[25] التطور النحوي للغة العربية ص 66 .

7 . لام الأمر : ومن الحذف الذي سببُه كثرةُ الاستعمال حذفُ اللام من فعلِ الأمرِ للمُواجَه . فمذهبُ الفرّاءِ أنَّ فعلَ الأمرِ للمُواجَه فرعٌ على الفعلِ المُضارِع ، ومقتطعٌ منهُ ، وأنّه معربٌ مجزومٌ ، وعاملُ جزمِه لامٌ محذوفةٌ ، ولكنْ لمّا كثُرَ في الكلام، وجَرى على الألسنِ ، استُثقِلَ مجيءُ اللامِ فيه معَ كثرةِ استعماله ، فحُذفت اللامُ معَ حرفِ المُضارعةِ تخفيفًا . قالَ الفرّاءُ إذ وقفَ على قوله تعالى : {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِه فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا }[26] : " هذه قراءةُ العامّة . وقد ذُكرَ عن زيدِ بنِ ثابتٍ أنَّهُ قرأَ { فبذلكَ فلتفرحُوا } أي يا أصحابَ محمّدٍ ، بالتاءِ ... وقوّى قولَ زيدٍ أنّها في قراءةِ أبيّ : {فبذلكَ فافرحُوا } ، وهو البناءُ الذي خُلِقَ للأمرِ إذا واجهتَ به أو لم تواجه ؛ إلاّ أنَّ العربَ حذَفتِ اللامَ من فعلِ المأمُورِ المُواجَه لكثرةِ الأمرِ خاصّةً في كلامهم ؛ فحذفُوا اللامَ كما حذفُوا التاءَ من الفعلِ . وأنتَ تعلمُ أنَّ الجازمَ أو الناصبَ لا يقعانِ إلاّ على الفعلِ الذي أوّلُهُ الياءُ والتاءُ والنونُ والألفُ . فلمّا حُذفت التاءُ ذهبْتَ باللامِ ، وأحدثتَ الألفَ في قولكَ : اضْربْ وافرحْ ؛ لأنَّ الضادَ ساكنةٌ ، فلم يستقِمْ أنْ يُستأنَفَ بحرفٍ ساكنٍ ، فأدخلُوا ألفًا خفيفةً يقعُ بها الابتداءُ "[27] .

وقد جعلَ أبو البركاتِ الأنباريُّ اعتلالَ الفرّاءِ بكثرةِ الاستعمالِ إحدَى حججِ الكوفيّينَ في عرضِه خلافَهم معَ البصريّينَ في فعلِ الأمر[28] .

8 . لا جرم : وممّا تُركَ بعضُ أحرفِه لكثرتِه في الكلامِ (لا جَرَمَ) . قالَ الفرّاءُ : " ولكثرتِها في الكلامِ حُذفتْ منها الميمُ ، فبنُو فزارةَ يقولُونَ : لا جَرَ أنّكَ قائمٌ "[29].

9 . وَيلكَ : ومن ذلكَ أيضًا أنّه قَبلَ أنْ يكونَ أصلُ (وَيْكَ) ويْلكَ ، ثمّ حذِفُ اللامُ منها ، معتلاّ بكثرتِها في الكلامِ . قالَ إذ وقفَ على قولِه تعالى : { وَيْكَأَنَّ اللهَ }[30] : " ... وقد يذهبُ بعضُ النحويينَ[31] إلى أنّهما كلمتانِ يريدُ : وَيكَ أنَّه ، أرادَ ويلكَ ، فحذفَ اللامَ ... وأمّا حذفُ اللامِ من (وَيلكَ) حتى تصير (ويك) فقد تقولُه العربُ ؛ لكثرتِها في الكلامِ ، قالَ عنترةُ :

وَلقدْ شفَى نفسِي وأبرأَ سقْمَها قِيلَ الفوارسِ ويْكَ عنتر أَقْدِمِ "[32] /الكامل

وقد خطّأَ أبو جعفرٍ النّحاسُ مذهبَ الفرّاءِ هذا من جميعِ الجهاتِ ، ولم يجدْ لهُ ما يصحّحُه . قالَ بعدَ أنْ نقلَ معنى كلامِ الفرّاءِ :" وما أعلمُ جهةً من الجهاتِ إلاّ هذا القولُ خطأٌ منها ، فمن ذلكَ أنَّ المعنَى لا يصِحُّ عليه ؛ لأنَّ القومَ لم يُخاطِبُوا أحدًا ، فيقولُوا : وَيلكَ ، وكانَ على قولِه أنْ يكونَ (إنّه)

---

[26] يونس الآية 58 .

[27] معاني القرآن 469/1 .

[28] الإنصاف في مسائل الخلاف مسألة رقم 72 .

[29] معاني القرآن 9/2 .

[30] القصص الآية 82 .

[31] قال أبو حيان في (البحر المحيط 135/7) : " وذهب الكسائي ويونس وأبو حاتم وغيرهم إلى أن أصله ويلك فحذفت اللام " .

[32] معاني القرآن 312/2 . والبيت لعنترة . شرح ديوان عنترة بن شداد ص 154 .

بكسرِ (إنَّ) ؛ لأنَّ جميعَ النحويّينَ يكسرونَ أنَّ بعدَ ويلكَ ، وأيضًا فإنَّ حذفَ اللامِ من ويل لا يجوزُ ، وأيضًا فليسَ يكتبُ هذا وَيكَ "[33] .

10 . الياء : ومن هذا البابِ حذفُ الياءِ التي في أواخرِ الكلماتِ ، سواءٌ أكانتْ للمتكلّمِ أم أصليّةً؛ لكثرةِ الاستعمالِ . وقد ناقشَ الفرّاءُ ذلكَ في غيرِ موضعٍ من كتابه، فقرّرَ قاعدةَ ذلكَ على نحوٍ مفصّلٍ حينَما شرعَ يُفسّرُ قولَه عزَّ وجلَّ : { فإنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ }[34] . فقد قرّرَ أنَّ للعربِ في الياءاتِ التي في أواخرِ الحروفِ أنْ يحذفُوا الياءَ مرةً ، اكتفاءً بالكسرةِ التي قبلَها دليلاً عليها ، وذلكَ انّها كالصّلةِ ، إذ سكنَتْ وهيَ في آخرِ الحروفِ ، واستُثقلَتْ فحذِفتْ ؛ وأنْ يُثبِتوها مرّةً ، وذلكَ هو البناءَ والأصلَ . وذكرَ أنَّ العربَ تفعلَ ذلكَ في الياءِ ، وإنْ لم يكنْ قبلَها نونَ[35] ، كقولِهم : هذا غلامي قد جاءَ ، وهذا غلامِ قد جاءَ ، ثمَّ ذكرَ أنَّ أكثرَ ما تحذفُ الياءُ بالإضافةِ في النداءِ ؛ لأنَّ النداءَ مستعملٌ كثيرٌ في الكلامِ[36] .

وكونُ هذا الحذفِ في النداءِ كثيراً هو ما أكّدَه في موضعٍ لاحقٍ إذ وقفَ على قولِه تعالى : {قَالَ ابْنَ أُمِّ }[37] قالَ : " يُقرأُ ابْنَ أُمَّ وأُمِّ بالنصبِ والخفضِ ، وذلكَ أنّه كَثُرَ في الكلامِ فحذفَت العربُ منهُ الياءَ . ولا يكادُونَ يحذفُونَ الياءَ إلاّ من المنادَى يُضيفُه المُنادِي إلى نفسِه ، إلاّ قولَهم : يا بْنَ عمِّ ويا بنَ أُمِّ . وذلكَ أنّه يكثرُ استعمالُهما في كلامِهم "[38] .

وأمَّا الياءُ الأصليّةُ فذكرَ الفرّاءُ أنَّ العربَ تحذفُها من فاعلٍ ممّا كانَ منقوصًا ، فيقولُونَ : هذا قاضٍ وداعٍ ورامٍ ومُفترٍ ؛ لكونِها ساكنةً مقترنةً بتنوينٍ ساكنٍ ، فلم يستقمْ جمعٌ بينَ ساكنينِ ، وذكرَ أنّهم إذا أدخلُوا فيه الألفَ واللامَ أثبتَوا الياءَ كقولِه تعالى : { فهو المهتدي }[39] ، وحذفَوها كقولِه تعالى: { من يهدِ اللهُ فهو المهتد }[40] ، وقد صوّبَ الوجهينِ ؛ الإثباتَ والحذفَ ، وذكرَ أنَّ مَن حَذفَها حَذفَها كراهيةَ زيادةِ ما لم يكنْ فيه ، وهو الياءُ ، إذ دخلتِ الألفُ واللامُ ، ولكنّه فَضَّلُ إثباتَ الياءِ ، لامتناعِ التنوينِ إذا أَدخلُوا الألفَ واللامَ فيه[41] .

---

[33] إعراب القرآن 244/3 .

[34] آل عمران الآية 20 .

[35] أشار الفراء إلى حذف ياء المتكلم التي قبلها نون ، كقوله تعالى في سورة الفجر الآيتان 15 و 16 :{ ربّي أكرَمنِ . و . أهانَنِ } فذكر أنَّ العربَ تحذفها ، ولا تُثبتُ ذلك ؛ لأنّ كسرة النون تدلّ عليها ، ولكنه لم يحمل ذلك على كثرة الاستعمال ، وإنّما اكتفى بالإشارة إلى أن ذلك كثير . ينظر : معاني القرآن 90/1 .

[36] معاني القرآن 200/1 . 201 .

[37] الأعراف الآية 150 .

[38] معاني القرآن 394/1 .

[39] الأعراف الآية 178 .

[40] الكهف الآية 17 .

[41] معاني القرآن 201/1 .

ومِمّا يتصلُ بحذفِ الياءِ تخفيفُ الياءِ المشدّدةِ من ألفاظٍ بعينِها لكثرتِها في لغةِ أصحابِها . قالَ مُفسّرًا قولَه تعالى : { واستوتْ على الجَودِيِّ }[42] : " وهو جبلٌ بحضنين من أرضِ الموصلِ ، ياؤُهُ مشدّدةٌ ، وقد حُدّثتُ أنَّ بعضَ القُرّاءِ قرأَ { على الجُودِي } بإرسالِ الياءِ . فإنْ تكنْ صحيحةً فهيَ ممّا كثُرَ به الكلامُ عندَ أهلِه فخفَّ "[43].

11 . ومن بابِ الحذفِ المحمولِ على كثرةِ الاستعمالِ أنَّ الفرّاءَ بنى على كثرةِ حذفِ الواوِ وزيادتِها في الكلامِ أنّه قبلَ قراءةَ مَن قرأَ (وأَكونَ) ، وصوّبَها في قولِه تعالى : { لَوْلا أَخّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ }[44] ، وإنْ كانتْ مخالفةً لرسمِ المصحفِ ، إذ ليسَ فيه (أكون) بالواوِ . قالَ : " وإذا أجبتَ الاستفهامَ بالفاءِ فنصبتَ فانْصبِ العُطوفَ ، وإنْ جزمْتَها فصوابٌ . من ذلكَ قولُه في المنافقينَ { لولا أَخّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ } رَدَدْتَ (وأكنْ) على موضعِ الفاءِ؛ لأنّها في محلّ جزمٍ ؛ إذ كانَ الفعلُ إذا وقعَ موقعَها بغيرِ الفاءِ جُزمَ . والنصبُ على أنْ تردّه على ما بعدها ، فتقولُ : (وأكونَ) ، وهي في قراءةِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ { وأكونَ } بالواوِ ، وقد قرأَ بها بعضُ القرّاءِ . قالَ : وأرى ذلكَ صوابًا ؛ لأنَّ الواوَ ربّما حُذفَتْ من الكتابِ وهي تُرادُ ؛ لكثرةِ ما تَنْقَصُ وتَزَادُ في الكلامِ ؛ ألا ترى أنّهم يكتبُونَ (الرحمن) وسليمانَ بطرحِ الألفِ ، والقِراءةُ بإثباتِها ؛ فلهذا جازتْ . وقد أُسقطتِ الواوُ من قولِه : {سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}[45]، ومن قولِه : { ويَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِ }[46] الآيةَ ، والقراءةُ على نيّةِ إثباتِ الواوِ "[47].

12 . وليسَ الحذفُ لكثرةِ الاستعمالِ بواجبٍ عندَ الفرّاءِ مطلقًا ، وإنّما هو ممّا يجوزُ في الكلامِ . فالإتمامُ جائزٌ والحذفُ جائزٌ . قالَ : " إلاّ أنَّ (سوفَ) كثُرتْ في الكلامِ ، وعُرفَ موضعُها، فتُركَ منها الفاءُ والواوُ ، والحرفُ إذا كثُرَ فربّما فُعلِ به ذلكَ ، كما قيلَ : أَيْشٍ تقولُ ، وكما قيلَ : لابَاكَ، وقُمْ لا بِشانئكَ ، يُريدونَ : لا أبا لك ، ولا أبا لشانئكَ "[48] .

ثانيا . جعل الكلمتين كالكلمة الواحدة :

ألحّ الفرّاءُ في غيرِ موضعٍ من كتابِه على أنَّ جعلَ الكلمتينِ كالكلمةِ الواحدةِ أمرٌ ليسَ بمَنكُورٍ في اللغةِ العربيةِ ، إذا كانتا كثيرتي الاستعمالِ في الكلامِ .

1 . للقد : من ذلكَ إدخالُهم حرفًا على حرفٍ مثلِه . فقد أدخلُوا لامًا أخرى للتأكيدِ على (لقد) وفيها لامٌ ، كقولِ الشاعرِ :

---

[42] هود الآية 44 .
[43] معاني القرآن 16/2 .
[44] المنافقون الآية 10 .
[45] القلم الآية 18 .
[46] الإسراء الآية 11 .
[47] معاني القرآن 87/1. 88 .
[48] معاني القرآن 274/3 .

فَلَئِنْ قومٌ أصابُوا غِرّةً وأَصَبنَا من زمانٍ رَفَقا

لَلَقدْ كانُوا لدَى أزماننا لِصَنيعين لِباسٌ وتُقَى[49] /الرمل

قالَ الفرّاءُ : " فأدخلَ على (لقد) لامًا أخرى ؛ لكثرةِ ما تلزم العرب اللامَ في (لقد) حتّى صارتْ كأنّها منها"[50].

2 .كما ما : ومثلُه كذلكَ زيادةُ (ما) بعدَ (كما) لكثرةِ (كما) في الكلامِ . قالَ : " ومثلُه قولُ الشّاعرِ :

كَمَا ما امْرُؤٌ في مَعشَرٍ غيرِ رهطِه ضعيفُ الكلامِ شخصُه مُتَضائِلُ[51] /الطويل

قالَ : (كما) ثمَّ زادَ معَها (ما) أخرى) ؛ لكثرةِ (كما) في الكلامِ ، فصارتْ كأنّها منها "[52].

3 . فَمالِ : ولكثرةِ وقوعِ اللامِ بعدَ (ما) توهّمُوا أنَّ اللامَ متّصلةَ بـ (ما) وأنّها حرفٌ في بعضِه ، هو (مال) . قالَ :" وقولُه : { فَمَا لِهَؤُلاءِ القومِ }[53] (فمال) كثُرتْ في الكلامِ ، حتّى توهّمُوا أنَّ اللامَ متّصلةٌ بـ (ما) ، وأنّها حرفٌ في بعضِهِ . ولاتّصالِ القراءةِ لا يجوزُ الوقفُ على اللامِ ؛ لأنّها لامٌ خافضةٌ "[54].

4 . الحمد لله : ومن ذلكَ قولُه في قراءةِ مَن قرأَ : { الحمدِ لله } و { الحمدُ لُله }: " " وأمّا مَنْ خفضَ الدالَ من (الحمدِ) فإنّه قالَ : هذه كلمةٌ كثُرتْ على ألسنِ العربِ حتّى صارتْ كالاسمِ الواحدِ ... ولا تُنكرنّ أنْ يُجعلَ الكلمتانِ كالواحدةِ إذا كثُرَ بهما الكلامُ ومن ذلكَ قولَ العربِ : (**بأَبَا**) إنّما هو (بأبِي) ، الياءُ ياءُ المتكلّمِ ، ليستْ من الأبِ ؛ فلمّا كثُرَ بهما الكلامُ توهّمُوا أنّهما حرفٌ واحدٌ ، فصيّرُوها ألفا "[55].

5 . إنّا لله : وقولُه : " وإنّما كُسرتْ في (إنّا لِلّه) ؛ لأنّها استعمِلت فصارتْ كالحرفِ الواحدِ ... لكثرةِ استعمالهم إيّاها ، كما قالُوا : الحمدِ للّه "[56].

6 . وَيْكَأَنَّ : ومنه أيضًا أنَّه نقلَ عن بعضِهم أنَّ معنَى (وَيْكَأَنّ) في قولِه تعالى : { وَيْكَأَنَّ اللهَ }[57] هو (وَيْ كَأَنَّ) ، وأنَّ (وي) منفصلةٌ من (كأنَّ) ، وأنّ (وي) تعجُّبٌ ، (وكأنّ) في مذهبِ الظنِّ والعلمِ . ثمَّ ذكرَ الفرّاءُ أنَّ الوجهَ أنْ تُكتبَ ، وَفقَ هذا المعنى ، منفصلةً غيرَ مُتّصلةٍ ، واعتلَّ لكتابتِها

---

[49] انشد ابن قتيبة هذا الشعر في (الشعر والشعراء 100/1) في باب " العيب في الإعراب " ، ونسبه للفراء ، وأبطل رواية (للقد) ، وذكر أنّ الرواية : فلقد . والبيت الثاني في اللسان بلا نسبة ، (لقد) 392/3

[50] معاني القرآن 68/1 .

[51] البيت بلا نسبة في همع الهوامع346/5.

[52] معاني القرآن 68/1 .

[53] النساء الآية 78 .

[54] معاني القرآن : 278/1 .

[55] معاني القرآن 3/1. 4 .

[56] معاني القرآن 94/1. 95 .

[57] القصص الآية 82 .

متّصلةً بأنَّه " يجوزُ أنْ تكونَ كثُرَ بها الكلامُ ، فوُصلتْ بما ليستْ منهُ ؛ كما اجتمعَتِ العربُ على كتابِ { يا بنَ أُمَّ } { يا بَنؤمَّ }[58] "[59].

7 . اللهمَّ : وقريبٌ من هذه المباحثة مذهبُه في أصلِ (اللهُمَّ) . فهو يرى أنَّ الأصلَ فيها " أنّها كانتْ كلمةً ضُمَّ إليها (أُمَّ) ، تريدُ : يا أللهُ أُمَّنا بخيرٍ ، فكثُرتْ في الكلامِ فاختلطتْ ، وجعلتْ كلمةً واحدة . فالرفعةُ التي في الهاءِ من همزةِ (أُمَّ) لمّا تُركتْ انتقلتْ إلى ما قبلَها".

ولعلّه من المناسبِ أنْ نُشيرَ إلى أنّ فيها أمرًا آخرَ رأى الفرّاءُ أنّه مرتبطٌ بكثرتِها في الكلامِ ، وهو تخفيفُ ميمِها في بعضِ اللغاتِ ، كقولِ الأعشى :

كَحَلْفَةٍ من أبي رياح يَسْمَعُها اللهُمَ الكُبارُ[60] /مجزوء البسيط

ثالثًا . الإتباع :

1 . وقفَ الفرّاءُ على قولِه تعالى : { الحَمَدُ للّهِ }[61] ، وحكى أنَّ أهلَ البدْوِ منهم يقولُ: (الحمدِ للّهِ)[62] ، ومنهم من يقولُ : { الحمدُ لُلّهِ }[63] ، ثمَّ أخذَ يعتلُّ لِمَا حكاهُ . فذكرَ أنَّ هذه الجملةَ كثُرتْ في كلامِ الناسِ ، وعلى ألسنِ العربِ ، حتّى صارتْ كالاسمِ الواحدِ ، والضمُّ في الاسمِ الواحدِ إذا كانَ بعدَه كسرةٌ ثقيلٌ ، فحوّلوا الضمةَ كسرةً ، والكسرةُ معَ الكسرةِ قد تجتمعانِ لخفّةِ ذلكَ كالإبِلِ ، وكذلكَ الضّمةُ معَ الضمّةِ ممّا يكثرُ اجتماعُه في أسماءِ العربِ كالحُلُمِ والعُقُبِ . ثمَّ ذكرَ أنَّ جعلَ الكلمتينَ كالكلمةِ الواحدةِ إذا كثُرَ الكلامُ بهما ليسَ ممّا يُنكرُ ، كقولِ العربِ (بأَبَا) بمعنى (بأَبي) ، فالياءُ ياءُ المتكلّمِ ، ليستْ من الأبِ ، ولكنْ لما كثُرَ بهما الكلامُ توهّمتِ العربُ أنّهما اسمٌ واحدٌ ، فأبدلَوا الياءَ ألفا . وهذا كلامُه :

" وأمّا مَنْ خفضَ الدالَ من (الحمدِ) فإنّه قالَ : هذه كلمةٌ كثُرتْ على ألسنِ العربِ حتّى صارتْ كالاسمِ الواحدِ[64] ؛ فثقُلَ عليهم أنْ يجتمعَ في اسمٍ واحدٍ من كلامِهم ضمّةٌ بعدَها كسرةٌ ، أو كسرةٌ بعدَها ضمّةٌ ، ووجدُوا الكسرتينِ قد تجتمعانِ في الاسمِ الواحدِ مثل إبِلٍ ، فكسرُوا الدالَ ليكونَ على المثالِ من أسمائِهم . وأمّا الّذينَ رفعُوا اللامَ فإنّهم أرادُوا المثالَ الأكثرَ من أسماءِ العربِ الّذي يجتمعُ فيه الضمتانِ ؛ مثل : الحُلُمِ والعُقُبِ . ولا تُنكرنَّ أنْ يُجعلَ الكلمتانِ كالواحدةِ إذا كثُرَ بهما الكلامُ ومن ذلكَ قولُ العربِ : (بأَبَا) إنّما هو (بأَبي) ، الياءَ ياءُ المتكلّمِ ، ليستْ من الأبِ ؛ فلمّا كثُرَ بهما

---

[58] طه الآية 94.

[59] معاني القرآن 312/2 . 313 .

[60] معاني القرآن 203/1 . 204 . والبيت للأعشى في ديوانه ص 283 .

[61] الفاتحة الآية 2 .

[62] هي قراءة الحسن كما في (إعراب القرآن 170/1) لأبي جعفر النحس ، وقراءة الحسن ورؤبة كما في (مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع ص 7) لابن خالويه .

[63] هي قراءة إبراهيم بن أبي عبلة كما في (إعراب القرآن 170/1) لأبي جعفر النحاس ، ومختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع ص 7) لابن خالويه .

[64] وينظر : معاني القرآن 94/1 . 95 .

الكلامُ توهّموا أنّهما حرفٌ واحدٌ ، فصيّرُوها ألفًا ، ليكونَ على مثالِ حُبْلَى وسَكْرَى؛ وما أشبهَه من كلامِ العربِ "[65].

2 . ومن ذلكَ كسرُ الهاءِ التي قبلَها ياءٌ ساكنةٌ مثل عليهِم ، أو كسرةٌ مثل بِهِم . فالعلّةُ في كسرِ الهاءِ في قولِه تعالى : { أنعمتَ عليهِم }[66] استثقالُ الضمّة في الهاءِ، وقبلَها ياءٌ ساكنة ؛ " لكثرةِ دورِ المكنيّ في الكلامِ "[67].

3 . ومثلُ ذلكَ كسرُ الألفِ التي قبلَها ياءٌ ساكنةٌ أو كسرةٌ ، كقولِه تعالى : { وإنّه **في أُمِّ** الكتابِ }[68]، وقولِه: {فلأُمِّه السُّدُسُ}[69]، وذلكَ لأنَّ (أمّ) " كثيرةُ المجرى في الكلامِ ؛ فاستُثقلَ ضمّةٌ قبلَها ياءٌ ساكنةٌ أو كسرةٌ " . وناظرَ الفراءُ الألفَ من (أُمّ) بالهاءِ ، فذكرَ أنَّ " كلَّ موضعٍ حسُنَ فيهِ كسرُ الهاءِ مثل قولِهم : فيهِم وأشباهِها ، جازَ فيهِ كسرُ الألفِ من (أُمّ)، وهي قياسُها"[70].

4 . ومن هذا البابِ إمالَةُ النونِ من (إنّا) في قولِه تعالى : { قَالُوا إِنَّا لِلّه }[71] . فالعلّةُ عندَ الفرّاءِ كثرةُ جملةِ (إنّا لله) في كلامِهم ، حتّى صُيِّرَت الكلمتانِ كالحرفِ الواحدِ . قالَ معلّقًا على هذه الآيةِ : " لمْ تكسرِ العربُ (إنّا[72]) إلاّ في هذا الموضعِ معَ اللامِ في التوجُّعِ خاصّةً . فإذا لم يقولُوا : (لِلّه) فتحُوا فقالُوا : إنّا لزيدٍ مُحِبُّونَ ، وإنّا لربِّنا حامدُونَ عابدونَ . وإنّما كُسِرتْ في (إنّا لِلّه) ؛ لأنّها استعمِلت فصارتْ كالحرفِ الواحدِ[73] ، فأُشيرَ إلى النونِ بالكسرِ لكسرةِ اللامِ الّتي في (لِلّه) ؛ كما قالُوا : هالِكٌ وكافِرٌ ، كسرتَ الكافَ من كافرٍ لكسرةِ الألفِ ؛ لأنّه حرفٌ واحدٌ ، فصارتْ (إنّا لِلّه) كالحرفِ الواحدِ لكثرةِ استعمالِهم إيّاها ، كما قالُوا : الحمدِ لِلّه "[74].

رابعا . معنى لا جرم :

مذهبُ الفرّاءِ أنَّ (لا جرمَ) " كلمةٌ كانتْ في الأصلِ بمنزلةِ لا بُدَّ أنّكَ قائمٌ، ولا مَحالةَ أنَّكَ ذاهبٌ ، فجرتْ على ذلكَ ، وكثُرَ استعمالُها إيّاه ، حتّى صارتْ بمنزلةِ حقًّا " ، وأيدَّ مذهبَه هذا بأنَّ

---

[65] معاني القرآن 3/1. 4 .

[66] الفاتحة الآية 7 .

[67] معاني القرآن 5/1 .

[68] الزخرف الآية 7 .

[69] النساء الآية 11 .

[70] معاني القرآن 6/1 .

[71] البقرة الآية 156 .

[72] في حاشيته : " المراد بالكسر هنا إمالة النون من (إنا) إلى الكسر كما في النحاس عن الكسائي : إنّ الألف ممالة إلى الكسرة ، وأما على أن تكسر فمحال لأنّ الألف لا تحرّك البتة ، وإنّما أُميلت في (إنّا لِلّه) لكسرةِ اللامِ في (لِلّه) الخ . وينظر : أبو جعفر النحاس : إعراب القرآن 273/1 .

[73] في حاشيته : " يريد : أنّ (نا لِلّه) كالكلمة الواحدة ، فوقعت الألف في (نا) قبل الكسرة (كسرة لام لله) متصلة ، وهذا سبب من أسباب الإمالة نحو عالم وكاتب ، وإن كان (نا) مما عدّ مشبها للحرف الذي لا إمالة فيه ؛ لأنه مبنيّ أصليّ ، فهو اسم غير متمكّن ، ولكنّهم استثنوا من المشبه للحرف (ها) للغائبة ، (نا) للمتكلم المعظم نفسه أو معه غيره خاصة ، فإنهم طردوا الإمالة فيهما لكثرة استعمالهما إذا كان قبلهما كسرة أو ياء ، فقالوا : مر بنا وبها ، ونظر إلينا وإليها ، بالإمالة لوقوع الألف مسبوقة بالمكسرة، أو الياء مفصولة بحرف ".

[74] معاني القرآن 94/1. 95 . ومراده بكسرِ كافِ كافرٍ إمالتُها .

العربَ تقولُ : لا جرمَ لآتينّكَ ، وأنّ المفسّرينَ فسّرُوها بمعنى الحقّ ، وردَّ قولَ من ذهبَ إلى أنّها بمعنى حَقُقْتَ ، أو حُققتَ[75] .

ولا يخفَى أنَّ الفرّاءَ هنا قد أشارَ إلى عاملٍ من عواملِ التطوّرِ الدّلاليِّ للكلماتِ والصيغِ ، وهو كثرةُ دَوَرانِها في الكلامِ ، وذلك ما ألحَّ عليه المتأخرونَ . قالَ فندريسُ : " نلاحظُ أنَّ معنى الكلمةِ يزيدُ تعرُّضا للتغيُّرِ ، كلّما زادَ استعمالُها ، وكثرُ ورُودُها في نصوصٍ مختلفةٍ "[76].

خامسا . الممنوع من الصرف :

أشارَ الفراءُ إلى كثرةِ الاستعمالِ في بابِ الممنوعِ من الصرفِ في ثلاثِ ظواهرَ .

1 . الظاهرةُ الأولى صرفُ أسماءِ النساءِ ممّا كانَ على ثلاثةِ أحرفٍ وأوسطُها ساكنٌ . قالَ معقّبًا على قولِه تعالى : { اهْبِطُوا مِصْرًا }[77] : " كُتبتْ بالألفِ ، وأسماءُ البُلدانِ لا تنصرفُ خَفّتْ أو ثُقُلَتْ ، وأسماءُ النساءِ إذا خفَّ منها شيءٌ جرى إذا كانَ على ثلاثةِ أحرفٍ ، ووسطُها ساكنٌ ، مثلُ دَعْدٍ وهِنْدٍ وجُمْلٍ . وإنّما انصرفتْ إذا سُمّيَ بها النساءُ ؛ لأنّها تُرَدَّدُ وتكثُرُ بها التسميةُ فتخِفُّ لكثرتِها، وأسماءُ البُلدانِ لا تكادُ تعودُ "[78] .

2. والظاهرةُ الثانيةُ صرفُ العلمِ الذي على وزنِ الفعلِ . قالَ وقد وقفَ على قولِه تعالى : { ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ }[79] : " ولم يُجرُوا (يغوثَ ويعوقَ) ؛ لأنَّ فيها ياءً زائدةً . وما كانَ من الأسماءِ معرفةً فيه ياءٌ أو تاءٌ أو ألفٌ فلا يُجرَى . من ذلكَ يَمْلُكُ ، ويَزِيدُ ، ويَعْمَرُ ، وتَغلبُ ، وأَحْمَدُ . هذه لا تُجرى لِمَا زادَ فيها . ولو أُجريَتْ لكثرةِ التسميةِ كانَ صوابًا "[80]. وقالَ في موضعٍ آخرَ : " ... كما كثُرتِ التسميةُ بيَزِيدَ فأجرَوهُ ، وفيه ياءٌ زائدةٌ تمنعُ من الإجراءِ "[81].

وقد ردَّ أبو جعفرٍ النّحّاسُ تعليلَ الفراءِ ، وذكرَ " أنّه لا يُحصّلُ ؛ لأنّه ليسَ إذا كثُرَ الشيءُ صُرِفَ فيه ما لا ينصرفُ ، على أنّه لا معنى لكثرتِه في اسمِ صنمٍ "[82].

3 . والظاهرةُ الثالثةُ أنّه ذكرَ أنَّ بعضَ النحويّينَ . وهو الكسائيُّ كما في غيرِه من المصادرِ[83] . ذهبَ إلى أنَّ العلّةَ في منعِ صرفِ (أشياءَ) أنّها " كثُرَتْ في الكلامِ ، وهيَ أفعالٌ ، فأشبهتْ فَعْلاءَ ، فلم تُصرفْ " ، ثمَّ ذكرَ أنّها " لو كانتْ على التوهّمِ لكانَ أملكَ الوجهينِ بها أنْ تجرى ؛ لأنَّ الحرفَ إذا كثُرَ بهِ

---

[75] معاني القرآن 2/8 . 9 .

[76] اللغة ص 253 . 254 .

[77] البقرة الآية 61 .

[78] معاني القرآن 1/42 . 43 .

[79] نوح الآية 23 .

[80] معاني القرآن 3/189 .

[81] معاني القرآن 1/321.

[82] إعراب القرآن 5/41 . 42 .

[83] إعراب القرآن 2/42 .

الكلامُ خَفَّ ؛ كما كثُرت التسميةُ بيَزيدَ فأجرَوهُ ، وفيه ياءٌ زائدةٌ تمنعُ من الإجراءِ . ولكنّا نرى أنَّ أشياءَ جُمعتْ على أفعلاءَ ، كما جُمعَ لَيّنٌ وأَلْيناءُ ، فحُذفَ من وسطِ أشياءَ همزةٌ ، كانَ ينبغي لها أنْ تكونَ (أَشيئاءَ) ، فحذِفتِ الهمزةُ لكثرتِها"[84] .

سادسا . الخفض :

وفي ذلكَ ثلاثُ مسائلَ حملَها الفرّاءُ على كثرتِها في الكلامِ . الأولى عملُ حرفِ الجرِّ مُضمرًا، والثانيةُ جعلُ التاءِ مكانَ الواوِ في القسمِ ، والثالثةُ حذفَ حرفِ الجرِّ (إلى) معَ الأفعالِ ذهبَ وانطلقَ وخرجَ .

1 . أمَّا عملُ حرفِ الجرِّ مضمرًا فذلكَ جائزٌ عندَه فيما يكثرُ استعمالُه كالقسمِ بالواوِ ، كقولِهم: اللهِ لأفعلَنَّ ، أو غيرِ القسمِ ، كقولِهم : خيرٍ ، جوابًا لمَن قالَ : كيفَ أصبحتَ . قالَ في تفسيرِ قولِه تعالى : { قالَ فالحَقَّ والحَقَّ أقولُ }[85] : " ولو خفضَ الحقَّ الأوّلَ خافضٌ يجعلُه اللهَ تعالى، يعني في الإعرابِ ، فيُقسمُ به كانَ صوابًا . والعربُ تُلقي الواوَ من القسمِ ويخفضُونَه ، سَمْعْناهم يقولُونَ : اللهِ لأَفعلَنَّ فيقولُ المجيبُ : أللهِ لأَفعلنَّ ؛ لأنَّ المعنَى مستعملٌ ، والمستعملُ يجوزُ فيه الحذفُ ، كما يقولُ القائلُ للرّجلِ : كيفَ أصبحتَ ؟ فيقولُ : خيرٍ ، يريدُ بخيرٍ ، فلمّا كثُرتْ في الكلامِ حُذِفَتْ "[86] .

وليسَ الفرّاءُ سبّاقًا إلى إجازةِ مثلِ هذا ، فقد أجازَ مثلَه قبلاً سيبويه[87] ، ولكنَّ المبرّدَ منعَه ، ولم يُجزْ إلاَّ النصبَ ؛ لأنَّ حرفَ الجرِّ مُحالٌ أنْ يحذفَ[88] .

2 . وأمّا جعلُ التاءِ مكانَ الواوِ في القسمِ فذلك في اسمٍ واحدٍ ، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ ، كقولِ تعالى : { تاللهِ }[89] ؛ لأنَّ الواوَ أكثرُ الأيمانَ مُجْرًى في كلامِ العربِ ؛ فتوهّموا أنَّ الواوَ منها لكثرتِها في الكلامِ، وأبدلُوها تاءً كما قالُوا: التُّراثُ، وهوَ من ورثَ، وكما قالَ: { رُسُلَنا تترى }[90] وهي من المواترةِ، وكما قالُوا: التُّخَمةُ، وهيَ منَ الوَخَامَةِ ، والتُّجاهُ وهيَ من واجهكَ "[91] .

وتعليلُ الفراءِ بكثرةِ الاستعمالِ أقربُ إلى روحِ اللغةِ من الاعتلالِ بأنّ التاءَ " لما كانتْ فرعًا للواوِ التي هيَ فرعٌ للباءِ ، والواوُ تدخلُ على المظهرِ دونَ المضمرِ ؛ لأنّها فرعٌ ، انحطّتْ عن درجةِ الواوِ ؛ لأنّها فرعٌ ، فاختَصَّتْ باسمٍ واحدٍ ، وهو اسمُ اللهِ تعالى "[92] .

---

[84] معاني القرآن 321/1 .

[85] ص الآية 84 .

[86] معاني القرآن 413/2 .

[87] الكتاب 160/2 .

[88] المقتضب 347/2 . 348. وينظر : إعراب القرآن 474/3 ، وخزانة الأدب 140/2.

[89] يوسف الآية 73 .

[90] المؤمنون الآية 44.

[91] معاني القرآن 51/2. وقد أشار المرادي في الجنى الداني (ص 57) إلى أن تاء القسم بدل من الواو من غير عزوه للفراء، وذكر أن بعضهم استضعفه لعدم الدليل على صحته.

[92] أسرار العربية ص 277 .

3 . وأمّا حذفُ (إلى) مع ذهبَ وانطلقَ وخرجَ فهو جائزٌ عندَ الفرّاءِ في هذه الأفعالِ الثلاثة ؛ لكثرةِ استعمالِها . قالَ في أثناءِ وقوفِه على قولِه تعالى : (فأينَ تذهبُونَ } : " العربُ تقولُ : إلى أينَ تذهبُ ؟ وأينَ تذهبُ ؟ ويقولُونَ : ذهبتُ الشامَ ، وذهبتُ السّوقَ ، وانطلقتُ الشامَ وانطلقتُ السوقَ ، وخرجتُ الشّامَ . سمعناهُ في هذه الأحرفِ الثلاثةِ : خرجتُ وانطلقتُ وذهبتُ . وقالَ الكسائيُّ : سمعتُ العربَ تقولُ : انْطُلِقَ به الفورَ[93] ، فنصبَ على معنى إلقاءِ الصفةِ ، وأنشدَني بعضُ بني عقيلٍ :

تصيحُ بنا حنيفةُ إذْ رأتْنا وأيَّ الأرضِ تذهبُ للصّياحِ[94] /الوافر

يريدُ : إلى أيِّ الأرضِ تذهبُ . واستجازُوا في هذه الأحرفِ إلقاءَ (إلى) لكثرةِ استعمالِهم إياها"[95].

سابعا . لولاك ولولاي :

ممّا يقعُ بعدَ (لولا) المُضمرُ الذي على صيغةِ الخفضِ ،كقولِهم : لولاكَ ولولاي ، وهو موضعٌ مُشكلٌ عندَ النحاةِ ، اختلفُوا في صحّةِ التركيبِ ، وفي توجيهِ إعرابِ الضميرِ.

فقد وقفَ الفرّاءُ على ذلكَ في (معاني القرآنِ) ، فأجازَ التركيبَ معتلاً بأنّ العربَ قد استعملتْ (لولا) في الخبرِ ، وأنّ الكلامَ كثرُ بها ، وذكرَ أنّ المعنى في لولاك ولولاي كالمعنى في قولِهم : لولا أنا ولولا أنت ، وأنَّ الضميرَ في موضعِ رفعٍ . قالَ : " وقدِ استعملتِ العربُ (لولا) في الخبرِ ، وكثُرَ بها الكلامُ حتّى استجازُوا أنْ يقولُوا : لولاكَ ولولايَ ، والمعنى فيهما كالمعنى في قولِكَ: لولا أنا ولولا أنتَ ، فقد توضعُ الكافُ على أنّها خفضٌ والرّفعُ فيها صوابٌ . وذلكَ أنّا لم نجد فيها حرفًا خافضًا خُفضَ ، فلو كانَ مما يخفضُ لأوشكتَ أنْ ترى ذلكَ في الشعرِ ؛ فإنّه يأتي بالمُستجازِ ، وإنّما دعاهُم أنْ يقولُوا : لولاكَ في موضعِ الرفعِ ؛ لأنّهم يجدُونَ المكنيَّ يستوي لفظُه في الخفضِ والنصبِ ، فيُقالُ : ضربتُكَ ومررتُ بكَ ، ويجدونه يستوي أيضا في الرفعِ والنصبِ والخفضِ، فيقالُ: ضربنا ومرَّ بنا ، فيكونُ الخفضُ والنصبُ بالنونِ ، ثمَّ يُقالُ : قُمنَا فعلْنَا فيكونُ الرفعُ بالنونِ . فلمّا كانَ ذلكَ استجازُوا أن يكونَ الكافُ في موضعِ (أنتَ) رفعًا ، إذ كانَ إعرابُ المكنيِّ بالدَّلالاتِ ، لا بالحركاتِ "[96] .

وكونُ " لولا " حرفَ ابتداءٍ والضميرِ في موضعِ رفعٍ خلافَ مذهبِ سيبويه ؛ فـ " لولا " عندَه حرفُ جرٍّ ، والضميرُ مجرورٌ بها[97] . وأنكرَ المبرّدُ استعمالَ " لولاي ولولاكَ " ، " إلاّ أنْ تقولَ لولا أنتَ

---

[93] ونقل أبو جعفر النحاس في (إعراب للقرآن 5/ 164) حكاية الكسائي ، وفيه الغور بدلا من الفور .

[94] البيت في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 243/19 ، وفيه (بالصياح) مكان (للصياح) .

[95] معاني القرآن 243/3 .

[96] معاني القرآن 58/2 .

[97] الكتاب 373/2 . وينظر أيضا : الإنصاف في مسائل الخلاف مسألة رقم 97 ، ص 687 ، وشفاء العليل 678/2 ، والأمالي الشجرية 212/2 ، والمساعد 294/2.

"[98] . وذكرَ الشلوبينُ أنَّ إنكارَ المبرّد مثلَ هذا الاستعمالِ هذيانٌ ؛ لاتّفاقِ أئمّةِ الكوفيّةِ والبصريّةِ على روايةِ " لولاكَ ، ولولاي " عن العربِ[99] .

ثامنا . تذكير العدد وتأنيثه :

وقفَ الفرّاءُ على قولِه تعالى : { والّذينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بأنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا }[100] ، فذكرَ أنَّ العلّةَ في تذكيرِ العددِ في قولِه : { وَعَشْرًا } كثرةُ تغليبِهم الليالِيَ على الأيامِ إذا أبهمَ العددُ من الليالي والأيامِ . قالَ : " وقالَ : { وعَشْرًا } ولم يقلْ : (عَشَرَة) ، وذلكَ أنَّ العربَ إذا أبهمتِ العددَ من الليالي والأيامِ غلّبُوا عليهِ الليالِيَ حتّى إنّهم ليقولُونَ : قد صُمنا عشرًا من شهرِ رمضانَ لكثرةِ تغليبِهم الليالي على الأيامِ . فإذا أظهرَوا معَ العددِ تفسيرَهُ كانت الإناثُ بطرحِ الهاءِ ، والذُّكرانُ بالهاءِ "[101] .

تاسعا . إلغاء اللام الموطئة للقسم :

يذكرُ النحويّونَ أنّه إذا اجتمعَ شرطٌ وقسمٌ ، وكانَ القسمُ متقدّمًا، كانَ الجوابُ للقسمِ ، وأغنى عن جوابِ الشرطِ . وناقشَ الفرّاءُ ذلكَ في كتابِه ، وأجازَ أن يكونَ الجوابُ للشرطِ مضارعًا مجزومًا[102] ، واحتجَّ بشعرٍ وجّهَهُ على توهّمُ إلغاءِ اللامِ في (لئنْ) ؛ لكثرتِها في الكلامِ . قالَ: " وأنشدني بعضُ بني عُقَيلٍ :

لَئِنْ كانَ ما حُدِّثْتُهُ اليومَ صادقًا أَصُمْ في نَهارِ القيظِ للشّمسِ بادِيا

وَأَرْكَبْ حِمارًا بينَ سَرجٍ وَفَرْوَةٍ وأُعرِ من الخاتامِ صغرى شماليا[103] /الطويل

فألقَى جوابَ اليمينِ منَ الفعلِ، وكأنَّ الوجهَ في الكلامِ أنْ يقولَ: لَئِنْ كانَ كذَا لآتِيَنَّكَ، وتوهَّمَ إلغاءَ اللامِ كمَا قالَ الآخرُ:

فَلا يَدْعُنِي قَومِي صَرِيحًا لِحُرَّةٍ لَئِنْ كُنتُ مقتولاً وَيَسلمُ عامرُ[104] /الطويل

فاللامُ في لَئِنْ ملغاةٌ، ولكنَّها كثُرتْ في الكلامِ حتّى صارتْ بمنزلةِ إنْ"[105] .

وقد ناقشَ الفرّاءُ المسألةَ نفسَها بعدًا من غيرِ أنْ يُخضعَها لسلطانِ كثرةِ الاستعمالِ ، وذكرَ أنَّ الشاعرَ رُبّما جزمَ ؛ " لأنَّ (لئن) إنْ التي يُجازى بها زيدتْ عليها لامٌ "[106] .

عاشرا . نصب النكرةِ والمعرفةِ بعد مالِ ، وما شأنك ، وما بالُك :

---

[98] الكامل في اللغة والأدب 237/3 .

[99] ارتشاف الضرب 470/2 ، والجنى الداني ص 605 .

[100] البقرة الآية 234 .

[101] معاني القرآن 151/1 .

[102] وينظر: ارتشاف الضرب 490/2، وهمع الهوامع 252/4، وشرح التصريح 254/2.

[103] البيتان في لسان العرب (ختم) 164/12 ، وخزانة الأدب 538/4. 540 .

[104] البيت لقيس بن زهير العبسي كما في الكتاب 46/3 .

[105] الفراء: معاني القرآن 67/1.

[106] معاني القرآن 130/2 .

مذهبِ الفرّاءِ أنَّ مالِ ، وما بالُكَ ، وما شأنُكَ كلماتٌ يجوزُ نصبُ المعرفةِ والنكرةِ بعدهُنَّ على الحال لتضمُّنهنَّ معنى الفعلِ ؛ لكثرةِ استعمالهنّ . قالَ إذ وقفَ على قوله تعالى : { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ }[107] : " فنصبَ فئتينَ بالفعلِ ، تقولُ : ما لكَ قائمًا ، كما قالَ اللهُ تباركَ وتعالَى: {فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ }[108] ، فلا تُبالِ أكانَ المنصوبُ معرفةً أو نكرةً ؛ يجوزُ في الكلامِ أنْ تقولَ: ما لكَ الناظرَ في أَمرِنا ، لأنّه كالفعلِ الذي ينصبُ بكانَ وأظنُّ وما أشبهَهُما . وكلُّ موضعٍ صَلحتْ فيه فَعَلَ ويفعلُ من المنصوبِ جازَ نصبُ المعرفةِ منهُ والنكرةِ ؛ كما تنصبُ كانَ وأظنُّ ؛ لأنّهُنَّ نواقصُ في المعْنَى ، وإنْ ظننتَ أنّهُنَّ تامّاتٌ . ومثلُ مالِ ، ما بالُكَ ، وما شأنُكَ . والعملُ في هذه الأحرفِ بما ذكرتُ لكَ سهلٌ كثيرٌ . ولا تقلْ : ما أمرُكَ القائمَ ، ولا ما خطبُكَ القائمَ "[109] .

فالفرّاءُ كما ترَى اعتمدَ على كثرةِ استعمالِ اللامِ و" بالبالِ " و " الشأنِ " مسبوقاتٍ باستفهامٍ في جوازِ نصبِ ما بعدَهنّ سواءٌ أكانَ معرفةً أم كانَ نكرةً على الحالِ ، وفي الوقتِ نفسِه منعَ ذلكَ معَ غيرِهنَّ .

حادي عشر . يا هَناهُ ويا هَنَتَاهُ :

يذكرُ النّحويّونَ أنّه يُقالَ في نداءِ المجهولِ الاسمِ أو المجهولَتِهِ : يا هَنُ ، ويا هَنْتُ[110] ، كما يقُولُون : يا هناهْ ويا هنتاهْ ، بمعنى يا رجلُ ويا امرأةُ ، ومنه قولُ امرئِ القيسِ :

وقدَ رَابَنِي قَولُها : يا هَنَا ... هُ ويحَكَ ألحَقْتَ شَرًّا بِشَرّ[111] /المتقارب

وناقشَ الفرّاءُ الصورةَ الأخيرةَ ، أعني قولهم : يا هناهْ وهنتاهْ ، في سياقِ حديثِه عن قولِه تعالى : { أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا }[112] ، فذكرَ أنَّ العربَ رُبّما أدخلتِ الهاءَ بعدَ الألفِ التي في (حسرَتا) ، فيخفِضُونَها مرّةً ، ويرفَعُونَها ، ثمَّ قرّرَ أنّ " الخفضَ أكثرُ في كلامِ العربِ ، إلاّ في قولِهم : يا هَناهُ ويا هَنتاهُ ، فالرفعُ فيهِ أكثرُ من الخفضِ ؛ لأنه كثرَ في الكلامِ ، فكأنّه حرفٌ واحدٌ مدعُوٌّ "[113] .

ثاني عشر . آل :

يرى الفرّاءُ أنَّ (آلٌ) واحدٌ لا جمعَ لهُ ، و " أنَّ أصلَهُ أهلٌ ، ثمَّ استُثقلتِ الهاءُ ، وكثُرتْ في الكلامِ ، فبُدِلتْ ألفًا "[114] .

ثالث عشر : القياس على ما كثر استعمالُه :

---

[107] النساء الآية 88 .

[108] المعارج الآية 36 .

[109] معاني القرآن 281/1 .

[110] ينظر : معجم النحو ص 399 .

[111] ينظر : لسان العرب (هنن) 438/13 . والبيت في ديوان امرئ القيس ص 160 .

[112] الزمر الآية 56 .

[113] معاني القرآن 422/2 .

[114] المذكر والمؤنث ص 435 .

لقد أفصحَ الفرّاءُ عن أنَّ ما لم يُستعملْ لا يُقاسُ على ما كثرَ استعمالُه . قالَ مُعَلّقًا على قوله تعالى : { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ }[115] : " فنصبَ فئتين بالفعل ، تقولُ : ما لكَ قائمًا ، كما قالَ اللهُ تباركَ وتعالَى: { فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ }[116] ، فلا تُبالِ أكانَ المنصوبُ معرفةً أو نكرةً؛ يجوزُ في الكلامِ أنْ تقولَ: ما لكَ الناظرَ في أمرِنا ، لأنّه كالفعلِ الذي ينصبُ بـ (كانَ) وأظنُّ وما أشبهَهما . وكلُّ موضعٍ صلحتْ فيه فَعَلَ ويفعلُ من المنصوبِ جازَ نصبُ المعرفةِ والنكرةِ ، كما تنصبُ كانَ وأظنُّ ؛ لأنّهنَّ نواقصُ في المعنى ، وإنْ ظننْتَ أنّهنَّ تامّاتٌ . ومثلُ مالِ ، ما بالُكَ ، وما شأنُكَ . والعملُ في هذه الأحرفِ بما ذكرتُ لكَ سهلٌ كثيرٌ . ولا تقلْ : ما أمرُكَ القائمَ ، ولا ما خطبُكَ القائمَ ، قياسًا عليهنَّ ؛ لأنّهنَّ قد كثُرنَ ، فلا يُقاسُ الذّي لم يُستعملْ على ما قدِ استُعملَ ، ألا ترى أنّهم قالوا : أيْشٍ عندكَ ؟ ولا يجوزُ القياسُ على هذه في شيءٍ من الكلامِ "[117] .

ومرَّ بنا قبلاً أنَّ كثرةَ استعمالِ ذهبَ وانطلقَ وخرجَ ممّا يجوزُ معَهُ إلقاءُ (إلى) ، ووَفْقَ مذهبِ الفرّاءِ السابقِ، فلا يُقاسُ عليها غيرُها؛ لأنّه : "لا يُقاسُ الذّي لم يُستعملْ على ما قد استُعملَ"، ولكنَّ أبا جعفرٍ النحاسَ ذكرَ أنَّ الكوفيّينَ ، والفرّاءُ منهم ، قاسُوا على ما سَمِعَوا من ذلكَ[118] .

الخلاصة :

إنَّ جملةَ ما مرَّ يكشفُ عن أنَّ الفرّاءَ كانَ سبّاقًا إلى الاعترافِ بخُضوعِ اللغةِ لأثرِ الاستعمالِ ، وتدخُّلِه وحريّتِه في توجيهِ ما كثُرَ جريُه ودوْرُه في كلامِهم ، وعلى ألسُنِهم. ويكشفُ عن مدى اعتمادِه على الاستعمالِ ، ووُضوحِ المعنى في تفسيرِ الظواهرِ اللغويّةِ ، وتوضيحِها ، والاحتجاجِ لمذاهبِه فيها .

ولا شكَّ في أنَّ كثرةَ الاستعمالِ والاعتمادَ عليها في تفسيرِ النصوصِ ، والمسائلِ اللغويّةِ أقربُ إلى روحِ اللغةِ ، وأبعدُ ما يكونُ عن فلسفةِ الظاهرةِ، وأساليبِ المتكلّمينَ ؛ لأنَّ الاستعمالَ لا يخضعُ للمنطقِ ، ولا يرتبطُ به في كثيرٍ من الأحوالِ . فقد يُصيبُ إحدَى الكلمتينِ المتشابهتينِ بسببِ كثرةِ استعمالِهم إياها ما لم يُصبِ الثانيةَ ؛ لأنّها لم تكثُرْ في كلامِهم ، وهو ما أشارَ إليه الفرّاءُ . قالَ: " وقولُه تعالى : { قَالَ ابْنَ أُمَّ }[119] يقرأُ ابْنَ أُمَّ وأُمِّ بالنصبِ والخفضِ ، وذلكَ أنّه كثُرَ في الكلامِ ، فحذفَت العربُ منهُ الياءَ . ولا يكادُونَ يحذفُونَ الياءَ إلاّ من المنادَى يُضيفُه المُنادي إلى نفسِه ، إلاّ قولَهم : يا بْنَ

---

[115] النساء الآية 88 .

[116] المعارج الآية 36 .

[117] معاني القرآن 281/1 .

[118] إعراب للقرآن 5/ 164 . وينظر : الكتاب 34/1 . وفيه أيضا : " ومثلُ ذهبت الشّامَ : دخلتُ البيتَ ".

[119] الأعراف الآية 150 .

عمِّ ، ويا بنَ أُمِّ . وذلكَ أنّه يكثرُ استعمالُهما في كلامهم . فإذا جاءَ ما لا يُستعملُ أثبتُوا الياءَ ، فقالُوا : يا بن أبي ، ويا بنَ أخي ، ويا بنَ خالتي ، فأثبتُوا الياءَ "[120] .

وقد ارتبطَ استعمالُ اللفظِ وكثرتُه في الكلامِ عندَ الفرّاءِ باستعمالِ المعنى وكثرتِه . فما كثرَ استعمالُه يلحقُهُ ما لا يلحقُ ما لم يكثرِ استعمالُه ، كما أنَّ ما كثرَ استعمالُ معناهُ يجوزُ فيه ما لا يجوزُ فيما قلَ استعمالُه. قالَ : " لأنَّ المعنَى مستعملٌ ، والمستعملُ يجوزُ فيه الحذفُ ، كما يقولُ القائلُ للرّجلِ : كيفَ أصبحتَ ؟ فيقولُ : خيرٍ ، يريدُ بخيرٍ ، فلمّا كثُرتْ في الكلامِ حُذِفَتْ "[121] .

ولعلَّ تآلفَ مثلِ هذه الظواهرِ لدى الفرّاءِ أو لدى غيرِه ما دفعَ السيوطيَّ ليذكرَ في (فنِّ القواعدِ والأصولِ) في حرفِ الكافِ في كتابِ (الأشباهِ والنظائرِ) أنَّ : " كثرةَ الاستعمالِ اعتُمدتْ في كثيرٍ من أبوابِ العربيّة"[122] ، وما دفعَ أبا البركاتِ الأنباريَّ ليُقرّرَ ويؤكّدَ ما قرّرَه الفرّاءُ قبلاً وألحَّ عليه ، أنَّ ما كثرَ استعمالُه يخفُّ على الألسنة ، ويجوزُ فيه ما يجوزُ في غيرِه[123] .

وقد تنبّه المحدثونَ إلى منزلةِ كثرةِ الاستعمالِ وأهمّيةِ ذلكَ في تعليلِ ظواهرِ اللغةِ . فهو عندَهم عاملٌ من عواملِ التطوّرِ الدّلالي للكلمة[124] . يقولُ فندريسُ : " نلاحظُ أنَّ معنى الكلمةِ يزيدُ تعرُّضًا للتّغيُّرِ ، كلّما زادَ استعمالُها ، وكثرُ ورُودُها في نصوصٍ مختلفةٍ ؛ لأنَّ الذهنَ في الواقعِ يُوجّهُ كلَّ مرّةٍ في اتجاهاتٍ جديدةٍ ، وذلكَ يُوحي إليها بخلقِ معانٍ جديدةٍ"[125] .

وفي الختامِ ، فإنَّ اعتمادَ كثرةِ الاستعمالِ في تحليلِ ظواهرِ اللغةِ وتفسيرِها وتعليلِها ؛ منهجٌ عمادُه الحسُّ اللغويِّ ، ذلكَ لأنَّ الباحثَ يركَنُ إلى الاستقراءِ والتّتبُّعِ ، ويعتني بذلكَ . ولذا فإنّ الأخذَ به في البحثِ اللغويِّ ، يبتعدُ باللغةِ عن أساليبِ المتكلّمينَ ، ويُجنّبُها التأويلاتِ البعيدةَ ، ويُقرّبُها إلى واقعِها تطوُّرا واستعمالا .

---

[120] معاني القرآن 394/1 .

[121] معاني القرآن 413/2 .

[122] الأشباه والنظائر 266/1 .

[123] أسرار العربية ص 231 .

[124] التطور اللغوي مظاهره وعلله ص 113 .

[125] اللغة ص 253 .

ثَبَتُ المراجع

1 . ابن أحمر ، عمرو : " شعر عمرو بن أحمر الباهلي "، جمعه وحققه حسين عطوان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، (بلا تاريخ).

2 . الأزهري ، خالد بن عبد الله الجرجاوي : " شرح التصريح على التوضيح "، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، (بلا تاريخ).

3 . الأعشى ، ميمون بن قيس : " ديوان الأعشى الكبير "، شرح وتعليق محمد حسين ، الناشر مكتبة الآداب بالجماميز ، المطبعة النموذجية ، القاهرة ، (بلا تاريخ).

4 . الأغلب العجلي : ديوانه ضمن " شعراء أمويون " ، تحقيق نوري القيسي ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب . بيروت ، ومكتبة النهضه العربية . بغداد ، (1985 م).

5 . الأنباري ، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد :

أ . " أسرار العربية "، عني بتحقيقه محمد بهجة البيطار ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، (بلا تاريخ).

ب . " الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين "، دار الفكر ، (بلا تاريخ) .

6 . الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم : " المذكر والمؤنث "، تحقيق طارق الجنابي ، الطبعة الأولى، مطبعة العاني ، بغداد ، (1978 م).

7 . برجشتراسر : " التطور النحوي للغة العربية "، أخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض ، (1982 م).

8 . البغدادي، عبد القادر : " خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب "، دار صادر، بيروت، (بلا تاريخ) .

9 . أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي :

أ . " ارتشاف الضرب من لسان العرب "، تحقيق مصطفى النماس ، المكتبة الأزهرية ، القاهرة، (1997 م) .

ب . " البحر المحيط "، مكتبة ومطابع النصر الحديثة ، الرياض ، (بلا تاريخ).
10 . ابن خالويه ، الحسن بن أحمد : " مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع "، عني بنشره برجشتراسر ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، (بلا تاريخ).
11 . رمضان عبد التواب : " التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه "، الطبعة الأولى ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الفاعي بالرياض ، (1983 م).
12 . السلسيلي ، أبو عبد الله محمد بن عيسى : " شفاء العليل في إيضاح التسهيل "، دراسة وتحقيق الشريف البركاتي ، الطبعة الأولى ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، (1986 م).
13 . سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان : " الكتاب "، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (1973 م).
14 . السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن :
أ . " الأشباه والنظائر في النحو "، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، (1975 م).
ب . " همع الهوامع شرح جمع الجوامع"، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (1992 م).
15 . ابن الشجري، هبة الله بن علي : " الأمالي الشجرية "، الطبعة الأولى ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، (1349 هـ).
16 . عبد الغني الدقر : " معجم النحو "، الطبعة الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، (1986 م).
17 . ابن عقيل ، عبد الله : " المساعد على تسهيل الفوائد "، تحقيق وتعليق محمدكامل بركات ، دار الفكر، دمشق ، الجزء الأول (1980 م)، والجزء الثاني (1982 م).
18 . عنترة بن شداد: " شرح ديوان عنترة بن شداد "، تحقيق وشرح عبد المنعم شلبي ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (1980 م).
19 . الفراء ، أبو زكريا يحيى بن زياد :
أ . " معاني القرآن "، الطبعة الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ، (1980 م).
ب . " المقصور والممدود "، حققه وشرحه ماجد الذهبي، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (1983 م).
20 . فندريس : " اللغة "، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، القاهرة ، (1950 م).
21 . ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم : " الشعر والشعراء "، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، الطبعة الأولى ، دار الحديث ، القاهرة ، (1996 م).
22 . القرطبي ، أبو عبد الله محمد: " الجامع لأحكام القرآن "، دار الكتب، القاهرة، (1945 م).

23 . المبرد ، محمد بن يزيد :

أ . " الكامل في اللغة والأدب "، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، المكتبة العصرية ، صيدا . بيروت ، (1997 م).

ب . " المقتضب "، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمه، عالم الكتب، بيروت، (بلا تاريخ).

24 . المرادي ، الحسن بن قاسم : " الجنى الداني في حروف المعاني "، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، الطبعة الثانية، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، (1983 م).

25 . ابن منظور ، محمد بن مكرم : " لسان العرب "، دار صادر ، بيروت ، (بلا تاريخ).

26 . النحاس ، أبو جعفر أحمد بن محمد : " إعراب القرآن "، تحقيق زهير زاهد ، الطبعة الثالثة ، عالم الكتب ، بيروت ، (1988 م).

27 . ابن يعيش ، موفق الدين : " شرح المفصل "، عالم الكتب بيروت ومكتبة المتنبي القاهرة، (بلا تاريخ).